

## المحدث والمؤرخ شمس الدين محمد الذهبي

الباحثة نبيلة القوصي

إخوتي القراء:

في مدينة دمشق الحبيبة مقابرٌ عدةٌ موزعةٌ بين أحيائها القديمة هنا وهناك ، تحكي لنا قصص بعضٍ من أصحابها الذين كان لهم أثرٌ في تسطير تاريخ دمشق الإسلامي العظيم.

ومن أقدم تلك المقابر مقبرة ( الباب الصغير) الواقعة في منطقة باب مصلى، ففيها عدد من الصحابة الكرام والعلماء الأجلاء الذين قد سُطرت أسماءهم وحُفظت في كتب ومؤلفات كي تكون لهم الشاهد والدليل على طيب وحسن سيرهم أمام نبي الرحمة الذي دعى للشام وأهلها، وأخبر أن فيها صفوة الخلق، فاجتهد علماؤها على أنفسهم متتبعين نهج النبوة المحمدية بأخلاق ونفوس نقية ، لتتألاً سيرهم في كتب التاريخ ولتكون عبرةً وعظةً فقط لمن قرأ وسمع ببصيرة متصلةً بالله عز وجل طالبةً رضا الله ورسوله ..

فالتفكر بالعقل لا بهوى النفس مع قلب نقى محب مشفق على الخلق يفتح للإنسان آفاق الفتوح لنيل المقصود بإذن الله ، وهو القائل عز وجل: ( إقرأ باسم ربك الذي خلق).  
فالقراءة والعلم واجب ولكن التدبر والتأمل أثناء القراءة واجب أكبر علينا لأن الفائدة والاعتبار هنا يسبقان المتعة، قال عز وجل: ( قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم... ) .

فمن هو هذا الذي يدعونا لقراءة سيرته العطرة، والتي تفوح منها معالم النهج المحمدي العظيم، فساهم بسيرته الذهبية هذه في بناء مدينة دمشق المباركة التي حظيت بدعاء نبينا الكريم؟

إنه الإمام الذهبي الحافظ، محدث ومؤرخ بلاد الشام في القرن الثامن للهجرة، الذي تميز بالجمع الموسوعي للتاريخ الإسلامي والإحاطة الدقيقة لقواعد الجرح والتعديل، حيث زحرت وازدانت المكتبة الإسلامية بمؤلفاته ومصنفاته المفيدة والمتنوعة، واستفاد منه جمع غفير من الناس، وطافت شهرته في البلاد شهرة استقطب بها العلماء وطلبة العلم من أنحاء العالم الإسلامي الواسع يتوافدون للتعرف عليه والاستفادة منه، نعم ولم العجب؟ فهؤلاء علماءك يا دمشق ولكِ بذلك الفخر والاعتزاز، فنبينا

الكريم قد فخر بهم وتشوق لرؤيتهم، فهم إخوانه الحقيقيون: (وددت لو رأيت إخواني، الذين آمنوا بي ولم يروني....) .. والمؤكد بأن الأخوة تستلزم العمل بما يجب ويرضي نبينا الكريم..  
فهل تشوقتم، إخواني القراء، لمعرفة سيرة الذهبي الذهبية التي رافقته في حياته وبعد مماته براقاً لامعة تدعوننا للوقوف عندها...؟ هيّا نقرأ معاً ..

بداية فلنستمع إلى تعليق له على إيثار عبيدة السلماني المتوفى سنة 74هـ لشعرة نبوية على سائر ذهب وفضة الأرض :

"هذا القول من عبيدة هو معيار كمال الحب وهو أن يؤثر شعرة نبوية على كل ذهب وفضة بأيدي الناس، ومثل هذا القول لإمام بعد النبي صلى الله عليه وسلم بخمسين سنة فماالذي نقوله نحن في وقتنا لو وجدنا بعض شعره بإسناد ثابت، أو شسع نعل كان له، أو قلامة ظفر، أو شقفة من إناء شرب فيه."

"فلو بذل الغني معظم أمواله في تحصيل شيء من ذلك عنده، أكنت تعده مبدراً أو سفيهاً؟  
كلا فابذل مالك في زورة مسجده الذي بنى فيه بيده، والسلام عليه عند حجرته في بلده، والتد بالظفر إلى أحده وأحبه، فقد كان نبيك صلى الله عليه وسلم يحب، و تملئ بالحلول في روضته ومقعده، فلن تكون مؤمناً حتى يكون هذا السيد أحب إليك من نفسك وولدك وأموالك والناس كلهم."

### اسمه ونسبه :

محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله التركماني الأصل الفارقي ثم الدمشقي الحافظ أبو عبد الله شمس الدين الذهبي، ولد في 3 ربيع الآخر عام 673 هـ في دمشق ونشأ فيها وترعرع بين أحضان أسرة كريمة، وكان والده يعمل في صناعة الذهب ومنها عُرف بالذهبي، وكان والده رجلاً صالحاً محباً للعلم اعتنى بتربيته وتنشئته على حب العلم والمعرفة فانضم إلى حلقات تحفيظ القرآن الكريم حتى حفظه وأتقن تلاوته في سن مبكرة وطلب الحديث وهو ابن ثمان عشر.

( فالأسرة) هي من أهم العوامل المؤثرة في نشأة الأبناء ونبينا حذر من التهاون في ذلك وقال: (.. وكلكم مسؤول عن رعيته... والرجل راع في بيته....) اللهم لا تحرمنا فقه فهم المسؤولية التربوية التي يقصدها مربينا نبي الرحمة . لأن ما يتلقاه الأبناء في الصغر سيظهر للملأ ولو بعد حين، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: ( يولد المولود على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه...).

فلتنظر كل أسرة منا عن ماهية نشأة أبنائها قبل فوات الأوان.....

أما العامل الثاني في التكوين الشخصي للإنسان هو (المجتمع)، ودمشق العزيزة التي حباها الله نعم كثيرة كانت ومازالت تقدم لساكنيها شرف سُكناها ليعمل ويجتهد كل فرد منا في مكانه ويسعى للفوز برضا الله ورسوله.. فحملت ألقاب عدة منها مدينة (العلم والعلماء) و(مدينة المدارس) وغير ذلك.

وإمامنا الذهبي الذي حظي برعاية أهله وعنايتهم به أخذ يبرز ذكاؤه أمام العلماء لينال اهتمام شمس العلم في عصره أمثال المزي والسبكي وابن كثير وغيرهم... فأخذت تبرز شخصيته العلمية بقوة ليصبح من جهاذة العصر.

استغل الذهبي هذا الجو العام الذي تهيأ له فملاً المكتبة الإسلامية بالعلم النافع وأقرنه بالعمل الصالح، يتعلم ويعلم دين الإسلام المحمدي الأصيل بنفحة دمشقية مميزة...

فلم تعرف المكتبات مؤرخاً غزير الإنتاج متنوع التأليف كالإمام الذهبي، الذي جمع بين ميزتين لم تجتمعا إلا لقلاتل من العلماء، فألى جانب إحاطته الواسعة بالتاريخ الإسلامي وحوادثه ورجاله، فقد أحاط بمعرفة واسعة في قواعد الجرح والتعديل، فكان مدرسة بذاته ذهبي الاسم والمضمون رحمه الله وجزاه خيراً.

### شيوخه:

كان شيوخه كثرة بلغوا من فوق الألف، ولئن نطيل بتعدادهم ولكن لنلفت النظر على حرصه الشديد في ملازمة الصالحين من أجلاء ذلك العصر لتزداد شخصيته العلمية سعة ومتانة مع ازدياد في التواضع، ولينال الثناء من علماء وعامة ذلك العصر..

أجازه أبو زكريا بن الصيرفي والقطب بن عصرون والقاسم الأربكي وعمر بن القواس وأحمد بن هبة الله بن عساكر ويوسف بن أحمد وغيرهم....

كان المزي وابن تيمية وتاج الدين السبكي من شيوخه وأقرانه على الرغم من فارق العمر. عشق الذهبي الرحلات العلمية التي اشتهر بها سادة العلماء لنشر معالم النبوة الحق عبر أخلاقهم وعلمهم النافع المفيد لكل زمان ومكان..

منعه والده خوفاً عليه فارتحل ضمن الخارطة الشامية وأول رحلاته كانت إلى (كفر بطنا) بغوطة دمشق تولى الخطابة وألف أفضل كتبه فيها، ثم تولى مشيخة دار الحديث.

ومن شيوخه: عبد الخالق بن علوان وزينب بنت عمرو وغيرهم من بعلبك....

ومن حلب سنقر الزيني وغيره، ومن نابلس العماد بن بدران وغيره...

وبعد وفاة والده ذهب للحج فسمع في مكة من التوزري وغيره....  
ومن مصر الأبرقوهي وعيسى بن عبد المنعم بن شهاب وشيخ الإسلام بن دقيق العيد  
والحافظين أبي محمد الدمياطي وأبي العباس بن الظاهري، وسمع بالإسكندرية من أحمد العراقي وأبي  
الحسين يحيى بن أحمد بن الصواف وغيرهم ..

### تلامذته:

سمع منه جمع كثير لا يحصى عددهم توافدوا من أنحاء العالم الإسلامي، وأخذ طلاب العلم  
الشرعي الأصيل يتزودون منه..  
وكان من أبرز من روى عنه ابن كثير والسبكي والصفدي وابن رجب الحنبلي..... وكانت لهم  
أقوال مدح وثناء فيه، فماذا قالوا...؟

### أقوال العلماء فيه:

قال أبو المحاسن: (صنف الكتب المفيدة فمن أطولها تاريخ الإسلام ومن أحسنها ميزان  
الاعتدال في نقد الرجال)  
قال ابن حجر: (ورغب الناس في تواليفه ورحلوا إليه بسببها وتداولوها قراءةً ونسخاً وسماعاً،  
ومهر في فن الحديث وجمع له المجاميع... حتى كان أكثر أهل عصره تصنيفاً..)  
قال ابن كثير: (الحافظ الكبير مؤرخ الإسلام وشيخ المحدثين وقد ختم به شيوخ الحديث  
وحفاظه)  
وقال ابن السبكي: (يشتمل عصرنا على أربعة من الحفاظ وبينهم عموم وخصوص: المزري  
والبرزلي والذهبي والشيخ الوالد، لا خامس لهم في عصرهم... كأنما جمعت الأمة في صعيد واحد  
فنظرها، ثم أخذ يخبر عنها..... جزاه عنا أفضل الجزاء).

وقال ابن العماد : (وأطنبت باسمه الأمثال ، وسار اسمه مسير لقبه الشمس، إلا أنه لا يتقلص  
إذا نزل المطر ، ولا يدبر إذا أقبلت الليالي، أقام في دمشق يرحل إليه من سائر البلاد، وهو بين أكنافها  
شرفٌ تفتخر وتزهو به الدنيا وما فيها ..). رحمهم الله جميعاً..  
فالنفس تجد راحةً بسماع أخبارهم وسيرهم، وهنيئاً لمن أحبهم واجتهد على نفسه كي ينال  
الفائدة قبل المتعة وقبل فوات الأوان...

مؤلفاته:

كان له تصانيف هائلة ومفيدة منها :

تاريخ الإسلام الكبير) ومختصره (سير أعلام النبلاء).

(العبرة في خبر من عبر) ومختصره (الدول الإسلامية) ومختصره (الإشارة) ثم مختصره (الإعلام في

وفيات الأعلام).

(ميزان الاعتدال في نقد الرجال). (المغني في الضعفاء). (النبلاء في شيوخ السنة).

(طبقات الحفاظ). (طبقات مشاهير القراء).

اختصر (تهذيب الكمال) لشيخه المزي وسماه (تهذيب التهذيب) ثم اختصره إلى (الكاشف).

واختصر (تاريخ بغداد) للخطيب و (تاريخ ابن السمعاني).

اختصر (وفيات المنذري). اختصر (سنن البيهقي).

(المعجم الكبير). (المعجم الأوسط). (المعجم الصغير).

(المشبه في الأسماء والأنساب). (تذكرة الحفاظ).

وغيرها من المصنفات الكثيرة المفيدة والأوراد الهائلة..

ولا عجب أن حصل على ثناء العلماء الكبار وعمامة الناس، فقد كان يحمل قبل العلم سمو

الأخلاق وريقها في نفسه وأهله وبلده.

وهذا عنوان إسلامنا العظيم الذي حرص على ترسيخ الدعوة إلى الله بالحب والرحمة والشفقة

على عباد الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لخلقهم، وأقربهم من النبي مجلساً يوم القيامة أحاسنهم أخلاقاً...

نرجو من الله تعالى أن نكون ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه..

لقد تميز الذهبي بمنهجٍ منفردٍ عن غيره، فبعد أن أكثر بالأخذ عن الشيوخ الأكابر قام برحلاتٍ

علميةٍ واسعةٍ ثم عكف على التصنيف والتأليف ثم اختصر واختصر لغيره في مؤلفات عدة ليستفيد

أكبر عدد من الناس ...

ومن إنشاده :

العلمُ قالَ اللهُ قالَ رسولُه

وحذارٍ من نصبِ الخِلافِ جهالةٌ

بينَ الرسولِ وبينَ رأيِ فقيهِه

وفاته:

توفي سنة 748 بالمدرسة المنسوبة لأم الصالح في قاعة سكنه.

يقول تاج الدين السبكي:

(رآه الوالد قبل المغرب وهو في السياق وسأله: أدخل وقت المغرب؟ فقال له الوالد: ألم تصل العصر؟، قال: نعم، ولكن لم أصل المغرب إلى الآن.

وسأل الوالد عن الجمع بين المغرب والعشاء تقديماً فأفتاه بذلك ففعله، ومات بعد العشاء قبل نصف الليل، ودُفن بالبواب الصغير).

إخوتي، إذا تأملنا بعمق إيماني روحاني بعد هذه القراءة، نجد بأن هناك نسمات من الخلود تتناهى أنغامها لتغطي سماء دمشق متألثة كونها تحتضن كمّاً هائلاً من العلماء الريانيين الذين عشقوا خالقهم وأحبوا نبيهم ثم عملوا على أنفسهم لاشك بجهد ومشقة كبيرة لينالوا شرف الفخر المحمدي صلى الله عليه وسلم، فخلدتهم أعمالهم الصالحة النافعة المتخلقة بالأخلاق النبوية والتي ميّزتهم عن سائر علماء الأرض.... فالإسلام دين غالي على الله يحتاج منا مجاهدة النفس باستمرار..

والذهبي رحمه الله حتى اليوم يستفيد منه خلقٌ كثيرٌ، لأنه فقهٌ معنى الإخلاص لله (فالأعمال صورٌ قائمةٌ وأرواحها سرٌ وجود الإخلاص فيها)، وسيظل هناك من يستفيد ليوم تشخص فيها الأبصار، وسيظل أناس يكتبون عنه ويدعون له: ((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: علمٌ نافعٌ، ولدٌ صالحٌ يدعو له، صدقةٌ جاريةٌ))... فالخلود بالعمل الصالح والعلم النافع... اللهم ارزقنا ولا تحرمنا....

جزاك الله خيراً يا إمامنا الذهبي... قد متّعنا بسيرتك التي قدمناها ادعوا الله لنا أن يفرج عنا ويجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

### المصادر:

شذرات الذهب في أخبار من ذهب / لابن العماد  
الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة / ابن حجر العسقلاني.  
طبقات الشافعية الكبرى / لتاج الدين السبكي